

جدلية ارتباط البحث الوثائقي بالبحوث الأخرى.

د. مريم رحمانى

مقدمة:

لقد شكل تصنيف أنواع البحوث انشغالا مركزيا لدى الباحثين في الدراسات الاجتماعية منذ مطلع القرن العشرين، حيث اختلف هؤلاء في تحديد المعايير التي يمكن من خلالها ضبط أهم الأنواع العلمية في العلوم الانسانية. وفي هذا السياق، تشير مراجعة الأدبيات أن بعض الباحثين يخلطون بين البحث الوثائقي والبحث التاريخي-هما نفس الشيء-، في حين يعتبر آخرون أن البحث الوثائقي هو نوع مستقل بذاته عن الأنواع الأخرى¹؛ حيث أن لكل واحد منهما طبيعته الخاصة. وهذا ما يؤكد العساف في قوله²: "البحث الوثائقي هو ذلك النوع من البحوث الذي يهدف إلى الجمع المتأنى والدقيق للسجلات والوثائق المتوفرة ذات العلاقة بمشكلة البحث، ومن ثم التحليل الشامل لمحتوياتها بهدف استنتاج ما يتصل بمشكلة البحث من أدلة وبراهين تبرهن على إحابة أسئلة البحث، ويطبق هذا المنهج عندما يراد اجابة سؤال عن الحاضر من خلال المصادر المعاصرة أساسية كانت أن ثانوية، وهناك خلط عند بعضهم بين البحث الوثائقي والمنهج التاريخي لتشابه خطوات البحث في كليهما، لكن المنهج الوثائقي يعتمد على مصادر حديثة وليست تاريخية، وللخروج من هذا الخلط يسميه بعضهم المنهج التحليلي لتمييزه عن المنهج التاريخي، وهذا خطأ جسيم لأن المنهج التحليلي ليس منهجا قائما بذاته/ وانما هو خطوة من خطوات إعداد أي بحث وفي أي منهج، حيث يقوم الباحث بتحليل ما حصل عليه من معلومات تحليليا كميًا أو كيفيًا".

لقد استخدم مصطلح "التوثيق" لأول مرة سنة 1870 حيث كان هذا المفهوم يعني "البحث عن الوثائق لانجاز دراسة أو مذكرة"³ ليتطور سنة 1930 إلى "الاستغلال المنهجي للمعلومات"⁴. وربما تعتبر الطريقة التي تتعلق بتجميع وتحليل البيانات والمعلومات أقدم شكل من أشكال البحث الحقيقي، ولقد استخدمها المؤرخون اليونان القدماء، واستخدمها أرسطو في دراسته عن الدمار والشعر اليوناني، ولقد طرأ على

¹ محمود عبد الكريم الجندي، "مناهج البحث في مقالات دوريات المكتبات والمعلومات العربية- دراسة تحليلية"، مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية، مج18، عدد2، ماي-نوفمبر 2012م، ص311.

² صالح حمد العساف، المدخل إلى البحث في العلوم السلوكية (الرياض: شركة العيكان للطباعة والنشر، 1989م) ص197.

³ عز الدين بودريان، البحث الوثائقي التربوي في مجتمع المعلومات دراسة ميدانية في المؤسسات التربوية الجزائرية، ولاية قسنطينة نموذجًا، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه دولة في علم المكتبات (كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، قسم المكتبات، 2004-2005)، ص35.

³ CHAUMIER, J. Travail et méthodes du / de la Documentaliste. Paris : ED. ESF, 1994. P. 5.

هذه الطريقة الوثائقية الكثير من التنقيح في العصر الحديث، وبالتالي أصبحت أكثر دقة مما كانت عليه أيام الفلاسفة وعلماء التاريخ اليونان⁵. على الرغم من أن البحث الوثائقي -في العصر الحالي- يكتسي الصبغة العلمية بجمع وتحليل البيانات بالإضافة إلى اختبار الفروض حتى يتم اثبات اتفاهه أو عدم اتفاهه مع الدليل ، ليصل إلى النتائج⁶.

1- الفرق بين البحث الوثائقي و البحث التاريخي

يُنظر إلى البحث الوثائقي على أنه الجمع المتأني والدقيق للسجلات والوثائق المتوافرة ذات العلاقة بموضوع مشكلة البحث، ومن ثم التحليل الشامل لمحتوياتها بهدف استنتاج ما يتصل بمشكلة البحث من أدلة وبراهين تبرهن على إجابة أسئلة البحث⁷. في حين أن البحث التاريخي هو جمع الأدلة وتقويمها ومن ثم تمحيصها وأخيرا تأليفها ليتم عرض الحقائق أولا عرضا صحيحا في مدلولاتها وفي تأليفها حتي يتم التوصل إلى استنتاج مجموعة من النتائج ذات البراهين العلمية الواضحة⁸. ويعتمد على المنهج التاريخي الذي يقوم على عملية استرداد ماكان في الماضي للتحقق من مجرى الأحداث، ولتحليل القوى والمشكلات التي صاغت معطيات الحاضر⁹.

يعد المنهج التاريخي واحدا من أهم المناهج النقدية الأكثر استعمالا في البحوث والدارسات الإنسانية الإجتماعية¹⁰. و تكمن أهمية استخدام المنهج التاريخي في أنه يدرس الأحداث الراهنة والاتجاهات المستقبلية في ضوء ما حدث في الماضي، حتى يمكن بذلك تقويم ديناميكية التغيير أو التقدم أو تحقيق المزيد من الفهم للمشكلات الإعلامية المعاصرة وإمكانية التنبؤ بالإشكاليات التي قد تظهر مستقبلا ، وبذلك يحقق البحث التاريخي ميزة مزدوجة من حيث الاستفادة من الماضي للتنبؤ بالمستقبل، والاستفادة من الحاضر لتفسير الماضي¹¹.

⁵ عبود عبد الله، منهجية البحث في العلوم الانسانية (دمشق: دار النمير، ط2002، 1) ص188.

⁶ المرجع نفسه ، ص190.

⁷ صالح حمد العساف، المدخل إلى البحث في العلوم السلوكية ، مرجع سابق ، ص28.

⁸ المرجع نفسه، ص282.

⁹ الهاشمي بن واضح، منهجية إعداد بحوث الدراسات العليا(ماستر- ماجستير- دكتوراه)، مطبوعة موجهة لطلبة للدراسات العليا في العلوم الاقتصادية والتجارية وعلوم التسيير ، 2016م، ص26.

¹⁰ الصادق دهاش، "إشكالية المنهج التاريخي في الدراسات النقدية الأدبية"، مجلة الصوتيات، المجلد20، العدد 20، أفويل 2018م، ص540.

¹¹ فاطمة عوض صابر، ميرفت علي خفاجة، أسس ومبادئ البحث العلمي (الاسكندرية: مطبعة الاشعاع الفنية، 2002م)، ص44.

وفي هذا السياق، يؤكد الباحثون أن الزمن الماضي بالنسبة للبحث العلمي يجب أن يبعد عن الباحث بما لا يقل عن نصف قرن حتى يدخل مجال البحث التاريخي¹². ذ.

من جهة أخرى، يرى **Rivier** أن البحث الوثائقي يتعلق أكثر بالمحتوى والتعمق فيه، حيث أن الإجابة عن الإشكالية المطروحة من طرف الباحث تتطلب قراءة الوثيقة نفسها، ولا يتوقف عند معرفة التسجيل البيبليوغرافي، وإلا فالعملية توصف بأنها مجرد بحث عن البيانات، وبعبارة أخرى فالبحث الوثائقي يكون بشكل شمولي أكثر، ويتضمن جملة من البيانات التي تشكل مجموع المعلومات المنظمة فيما بينها بشكل نص أو مجموعة من النصوص، التي تجيب عن التساؤل الذي يراود الباحث¹³.

وعلى أية حال يمكن القول بأن البحث الوثائقي **Research documentary**، هو نوعٌ من أنواع البحوث الذي يعتمد على جمع، ودراسة الوثائق المرتبطة بمحتوى البحث، كما يعتبره آخرون بحثاً دقيقاً يعتمد على مراجع موثوقة تساهم في فهم قضية، أو ظاهرة معينة بالاعتماد على المعلومات المسجلة حولها، والتي تساعد على الوصول إلى النتائج المناسبة المرتبطة بموضوع البحث الوثائقي¹⁴.

كما ارتبط لدى بعض الباحثين بالوثائق، حيث اعتبروه "عملية إيجاد الوثائق التي لها علاقة وطيدة بالمجال والموضوع المقصود، ضمن أدوات البحث المتوفرة ومن ثم تقييمها وتحليلها"¹⁵. لأن "الهدف الأساسي للتوثيق يتجلى في بث معلومة ذات نجاعة، كاملة ولا يمكن الاعتماد عليها، وتقدم هذه المعلومة من خلال أوعية متنوعة - مطبوعة، رقمية أو سمعية - بصرية"¹⁶

فالتوثيق هو فن وعلم تنظيم المعلومات والتحكم فيها، مهما كان مجالها العلمي أو التقني.¹⁷ فعلى حد تعبير **MALLEN** "الحاجات الوثائقية تشبه الطعام الذي ينتظره المستهلك من المصلحة الوثائقية"¹⁸.

على الرغم من أن هذا النوع من البحوث-الوثائقية- يمكن أن يستخدم في جميع المجالات الأكاديمية، إلا أنه ذو أهمية خاصة في دراسة التاريخ والآداب واللغات والإنسانيات على وجه العموم، ويستخدم علماء التاريخ

¹² شعبان عبد العزيز خليفة، المحاورات في مناهج البحث في علم المكتبات والمعلومات(القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ط5، 2010)، ص73.

¹³ Alexie. Rivier. Aide-Mémoire D'Informatique Documentaire. Paris. Cercle de la Librairie. 2008. p. 36.

¹⁴ مجد حضر، "البحث الوثائقي"، في: [https://mawdoo3.com/%D8%A7%D9%84%D9%88%D8%AB%D8%A7%D8%A6%D9%82%D9%8A%D8%AB_%D8%A7%D9%84%D9%88%D8%AB%D8%A7%D8%A6%D9%82%D9%8A](https://mawdoo3.com/%D8%A7%D9%84%D8%A8%D8%ADhttps://mawdoo3.com/%D8%A7%D9%84%D9%88%D8%AB%D8%A7%D8%A6%D9%82%D9%8A%D8%AB_%D8%A7%D9%84%D9%88%D8%AB%D8%A7%D8%A6%D9%82%D9%8A) (2019/11/15).

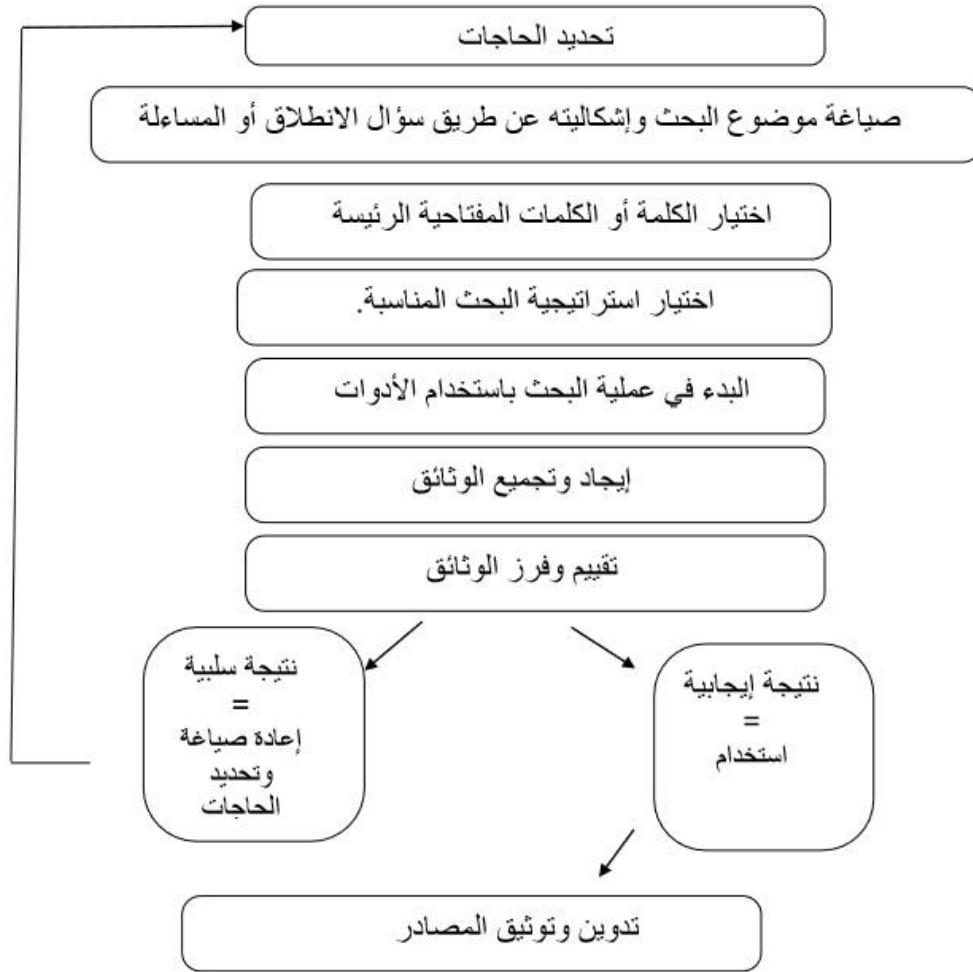
¹⁵ Hadj. Batatia. Recherche Bibliographique [en linge] URL. www.ipst.fr/IMG/pdf/ch03-bibliographie.pdf.

¹⁶ Les métiers de la documentation. Paris : Ed .d'organisation ,1998, P 78

¹⁷ HUMBLET, J.E. Comment se documenter. Bruxelles : Ed.Labor, 1985. P.25.

¹⁸ MALLEN , M, C. La recherche des besoins et l'analyse des attitudes des utilisateurs . Documentaliste , 1976, N° , 4 . P.,. 144.

هذه الطريقة بشكل ثابت، مما أدى إلى تسميتها في كثير من الأحيان بالطريقة التاريخية¹⁹. ويمكن توضيح الخطوات والمراحل التي يمر بها البحث الوثائقي في الشكل الآتي:



الشكل (01): خطوات البحث الوثائقي²⁰

إن نجاح البحث الوثائقي وفعالته تتوقف على مهارة الباحث بل هو في حد ذاته مهارة لا بد من اكتسابها، وهو يوفر على الباحثين ساعات من العمل المضي²¹. لأنه إجراء منظم، قائم على التحقق والتعرف والمطابقة والمقارنة وكذا يسمح باسترجاع ومعاينة ومعالجة البيانات والعناصر المتعلقة بمجال البحث المطلوب (أرقام، نصوص،

¹⁹ عبود عبد الله، منهجية البحث في العلوم الانسانية، مرجع سابق، ص 187.

²⁰ سليمة شعلال، التدريب الإلكتروني على البحث الوثائقي وأثره في تنمية مهارات المستفيدين من المكتبات الجامعية- دراسة شبه تجريبية بجامعة تبسة، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في علم المكتبات (جامعة قسنطينة 2 عبد الحميد مهري: معهد علم المكتبات والتوثيق، قسم المكتبات ومراكز المعلومات، 2016-2017)، ص 95.

بيبلوغرافيات...) وهذه العملية يجب أن تكون متعلقة بالموضوع ولا تخرج عنه، كما يستوجب أن تكون الدراسة وافية وشاملة قدر الامكان²².

ويمكن تصنيف مصادر البحث الوثائقي بين المصادر التقليدية(الورقية) والحديثة (الالكترونية) ويمكن حصرها فيما يلي: الفهارس، القواميس والمعاجم، الصور والفيديوهات، الخرائط، الكتب والمجلات، المخططات والأطالس، النشريات والدوريات، المؤتمرات والملتقيات، الوثائق الرسمية والنصوص التشريعية والقوانين، المطويات، الوثائق الإعلامية، البحوث الاكاديمية والتقارير الادراية، شهود عيان، مصادر شخصية(مفكرات، رسائل)، الاحصائيات، التقارير والمخاض، الانترنت بما فيها من محركات البحث المتنوعة، المنصات الالكترونية والمدونات، الارشيف، المواقع العلمية، بنوك المعلومات...

2- البحث الوثائقي وأنواع البحوث الأخرى:

تشكل علاقة العلوم ببعضها البعض أحد أهم الانشغالات العلمية التي انصب اهتمام الباحثين نحوها في محاولة لتحقيق ما يسمى بـ"التجاسر المعرفي"، من هذا المنطلق تبرز أهمية هذا البحث كونه يسلط الضوء على البحث الوثائقي في علاقته بالبحوث الأخرى لفهم أوجه التداخل والاختلاف بينهم، ويمكن توضيح هذا من خلال النقاط التالية:

- البحث الوثائقي واسع ومترامي الجوانب، ولا يستطيع الباحث فيه التحكم في متغيراته بشكل مضبوط لأنه لا يستطيع التحكم في ظروف الملاحظة والتحليل والاستنتاج... لكن هذا لا يقتصر على البحث الوثائقي فقط بل يتعدى إلى البحوث السلوكية كلها (السياسة، الإقتصاد، علم الاجتماع).
- يهدف البحث الوثائقي إلى فهم الحاضر على ضوء الماضي الموثق، لأنه لا يمكن أن تصل إلى فهم الأحداث والقضايا دون التعرف على ماضيها وأصولها؛ وهذا ما يميزه عن البحوث الأخرى.
- بعكس البحوث الأخرى، يصعب على الباحث الحصول على بعض الوثائق نظرا لأهميتها وندرتها حيث تعمل الدول والسياسات على إحاطتها بالسرية وتعقيد اجراءات الوصول إليها (الصعوبات الإدارية: تصاريح، أذونات،...)، وهذا ينعكس بالسلب على البحث الوثائقي خاصة وأن تحقيق أهدافه يرتبط ارتباطا وثيقا بكمية ونوعية الوثائق المتاحة.

²¹ Doing a literature search: a step by step guide. Faculty Librarians..Liverpool hope university September 2012[en linge]. URL. <https://www.hope.ac.uk/media/liverpoolhope/.../media,1256,en.pdf>.

²² Sources d'information et méthodologie de documentaire. [en linge]. URL. www.irdes.fr/EspaceDoc/DossiersBiblios/SourcesInfo.pdf.

- في دراسته وتحليله للوثائق يجتهد الباحث في التدقيق والتحليل النقدي في المصادر والأدلة ليصل ببحثه إلى أقصى درجة من الأصالة والصدق؛ عكس البحوث الأخرى التي تتميز بمصدقية طرقها و رصانة أدواتها العلمية وبالتالي توفر نوعا ما الجهد والوقت. وفي المقابل يؤكد بعض الباحثين أن لا توجد إمكانية للتفاعل بين الباحث والموضوع، ما يجعل النتائج أكثر حيادية ويقلل احتمالية تأثرها بالباحث .
- يُستخدم البحث الوثائقي في الدراسات الانسانية كما في الدراسات والأبحاث التجريبية عكس البحوث الأخرى التي تصلح في نوع واحد فقط من البحوث.
- قلة الانفاق على انجاز البحوث الوثائقية كغيرها من البحوث الأخرى خاصة في الدول النامية (الصعوبات المادية والمالية التي تعترض انجاز البحوث)، وفي هذا الصدد تؤكد الاحصائيات أن نسبة الانفاق على الأبحاث العلمية تنضاعف باستمرار كل ثلاث سنوات إلا في الدول العربية²³؛ ففي الوقت الذي لا يمثل فيه البحث العلمي أكثر من 5% من الأعباء الوظيفية لدى أعضاء هيئة التدريس في الجامعات العربية ، يصل إلى حوالي 33% من أعباء نظائهم في الدول المتقدمة²⁴.
- يدرس البحث الوثائقي مصادره دراسة نقدية داخليا (المعنى) وخارجيا(الشكل والمظهر) لأن معظمها غير مباشرة على عكس البحوث الأخرى التي تكون غالبية مصادرها مباشرة.
- البحث الوثائقي لا يقل أهمية عن الأنواع الأخرى خاصة إذا اعتمد على المصادر الأولية(الأصلية مصدر المعلومة والتي لم تتعرض إلى تحريف أو تغيير).
- لا يمكن تعميم نتائج البحث الوثائقي دائما خاصة إذا كان يعتمد في مصادره على الأحداث الماضية حيث تتدخل فيها مجموعة من العوامل التي لا يمكن التحكم فيها(لا يمكن أن تتكرر الأحداث بنفس الطريقة)على عكس البحوث الأخرى (صدق وثبات الأدوات،الاتساق الداخلي..).
- يعاني الباحث في البحث الوثائقي من صعوبة الوصول إلى المصادر الأولية (ونعني هنا الوثائق) بالإضافة إلى ندرتها في كثير من الأحيان.
- التشكيك في موضوعية البحث الوثائقي(تصريحات الأشخاص قد تكون متحيزة)، كما قد تغلب ذاتية الباحث في التوقع والتنبؤ والاستنتاج- يصعب تمييز التحيزات في الموارد الوثائقي خاصة وأن من يكتب التاريخ هم المنتصرون والأقوياء-.
- يساعد البحث الوثائقي على الامام بكل جوانب موضوع الدراسة وتحديد خلفية متكاملة عنها ما يساعد على التحليل والتفسير والتنبؤ والاستشراف، عكس البحوث الأخرى إذا عزلناها عن جانبها النظري.
- نعتمد على البحث الوثائقي لبرهنة الحجج الأكاديمية و تدعيم الآراء ووجهات النظر.

²³ أنطوان زحلان، العلوم والسياسة العلمية في الوطن العربي(بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية،1979م)، ص27.

²⁴ أحمد حويطي، صعوبات تنفيذ البحوث الاجتماعية في العالم العربي،(جامعة الجزائر: قسم علم الاجتماع)، ص87.

لهذا يمكن القول أن البحث الوثائقي رغم أنه نوع مستقل بذاته ومناهجه عن الأنواع البحثية الأخرى، إلا أنه يعتبر أيضا جزءا لا يتجزء في معظم الأبحاث الأخرى خاصة في ظل استخدام الأساليب التوثيقية العالمية، التي تسهل على الباحث عملية الاستشهاد من مختلف المراجع والمصادر (الإطار النظري، تحليل المحتوى، الدراسات السابقة، مناقشة النتائج بمقارنتها مع نتائج البحوث الأخرى، جمع المادة العلمية، التهميش،...).

خاتمة:

انطلاقا مما سبق، في محاولة منا لدراسة جدلية ارتباط البحث الوثائقي بالبحوث الأخرى يمكن اعتبار البحث الوثائقي:

- نوع مستقل بذاته ومناهجه عن الأنواع البحثية الأخرى، وله أهميته في استخدام الوثائق كمصادر توصل إلى نتائج هامة من الناحيتين العلمية والعملية.
- جزء لا يتجزأ من الأنواع البحثية الأخرى، يعتبر مصدر قوة للباحث لأنه يطلع على إنجازات سنوات من البحث والتدقيق ما يساعد على اختصار الوقت والجهد.
- منهج يعتمد عليه في دراسة مختلف الظواهر والإشكاليات.

قائمة المراجع والمصادر

المراجع باللغة العربية:

- محمود عبد الكريم الجندي، "مناهج البحث في مقالات دوريات المكتبات والمعلومات العربية- دراسة تحليلية"، مجلة مكتبة الملك فهد الوطنية، مج18، عدد2، ماي-نوفمبر 2012م.
- صالح حمد العساف، المدخل إلى البحث في العلوم السلوكية. الرياض: شركة العبيكان للطباعة والنشر، 1989م .
- عز الدين بودريان، البحث الوثائقي التربوي في مجتمع المعلومات دراسة ميدانية في المؤسسات التربوية الجزائرية، ولاية قسنطينة نموذجا، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه دولة في علم المكتبات، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، قسم المكتبات، 2004-2005م.
- عبود عبد الله، منهجية البحث في العلوم الانسانية. دمشق: دار النمير، ط2002، 1م.
- الهاشمي بن واضح، منهجية إعداد بحوث الدراسات العليا (ماستر- ماجستير- دكتوراه)، مطبوعة موجهة لطلبة الدراسات العليا في العلوم الاقتصادية والتجارية وعلوم التسيير، 2016م.
- الصادق دهاش، "إشكالية المنهج التاريخي في الدراسات النقدية الأدبية"، مجلة الصوتيات، المجلد20، العدد 20، أوفيل 2018م.
- فاطمة عوض صابر، ميرفت علي خفاجة، أسس ومبادئ البحث العلمي. الاسكندرية: مطبعة الاشعاع الفنية، 2002م ، ص44.

- شعبان عبد العزيز خليفة، المحاورات في مناهج البحث في علم المكتبات والمعلومات. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ط5، 2010م.
- سليمة شعلال، التدريب الإلكتروني على البحث الوثائقي وأثره في تنمية مهارات المستفيدين من المكتبات الجامعية- دراسة شبه تجريبية بجامعة تبسة، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في علم المكتبات. جامعة قسنطينة2 عبد الحميد مهري: معهد علم المكتبات والتوثيق، قسم المكتبات ومراكز المعلومات، 2016-2017م.
- أنطوان زحلان، العلوم والسياسة العلمية في الوطن العربي. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1979م.
- أحمد حويطي، صعوبات تنفيذ البحوث الاجتماعية في العالم العربي. جامعة الجزائر: قسم علم الاجتماع.
- مجد خضر، " البحث الوثائقي"، في:

https://mawdoo3.com/%D8%A7%D9%84%D8%A8%D8%AD%D8%AB_%D8%A7%D9%84%D9%88%D8%AB%D8%A7%D8%A6%D9%82%D9%8A

المراجع باللغتين الانجليزية والفرنسية:

- CHAUMIER, J. Travail et méthodes du / de la Documentaliste. Paris : ED. ESF, 1994.
- Alexie. Rivier. Aide-Mémoire D'Informatique Documentaire. Paris. Cercle de la Librairie. 2008.
- Hadj. Batatia. Recherche Bibliographique [en linge] URL. www.ipst.fr/IMG/pdf/ch03- bibliographique.pdf.
- Les métiers de la documentation. Paris : Ed .d'organisation ,1998.
- HUMBLET, J.E. Comment se documenter. Bruxelles : Ed.Labor, 1985.
- MALLEN , M, C. La recherche des besoins et l'analyse des attitudes des utilisateurs . Documentaliste , 1976, N° , 4 .
- Doing a literature search: a step by step guide. Faculty Librarians..Liverpool hope university September 2012[en linge]. URL. <https://www.hope.ac.uk/media/liverpoolhope/.../media,1256,en.pdf>.
- Sources d'information et méthodologie de documentaire. [en linge]. URL. www.irdes.fr/EspaceDoc/DossiersBiblios/SourcesInfo.pdf.